الصراع على السلطة في الدولة العبيدية ببلاد الغرب الإسلامي وتداعياته السياسية(296-365هـ/808-900م)

د/ عبد المنعم محمد جمال الدين الصادق
أستاذ مشارك/ قسم التاريخ
كلية الآداب / الاصابعة
جامعة غريان
د / هاشم منصور مفتاح بدر
أستاذ مشارك / تاريخ إسلامي
كلية الآداب جامعة درنة

المقدمة :

يعد قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) ببلاد الغرب الإسلامي عموما وافريقية على وجه الخصوص نتيجة حتمية لحالة التأهب التي وصلت اليها هذه البلاد ، سواًء من ناحية حالة الضعف والتردي الذي وصلت اليه الدولة الأغلبية في أواخر عهدها بسبب الفتن والثورات والامراء الضعاف الذين اصبحوا عاجزين عن مواجهة التحديات الداخلية والخارجية . وأيضا من ناحية الحملة الدعائية الواسعة النطاق التي قام بها مجموعة من الدعاة الذين أخذوا على عاتقهم نشر المذهب الشيعي والدعاية لآل البيت لكونهم الاحق بالخلافة . بحسب زعمهم . بعد ان عجزوا عن تحقيق ذلك في المشرق بسبب القبضة الأمنية الشديدة التي مارسها العباسيين والملاحقات التي تعرضوا لها .وقد اعتمدوا على جملة من القواعد والاسس والمبادئ التي نادى بها هؤلاء لتحقيق أهدافهم وتطلعاتهم . وان كنا غير معنيين . في هذا الصدد . بتقييم تلك المبادئ والاسس والقواعد ، والحكم على مدى صدقها أو صدقيتها من عدمه ، ومدى ارتباطها بالواقع العملي ، وإمكانية تطبيقه على ارض الواقع ، والالتزام بها من هؤلاء الدعاة انفسهم ؛ فانه يتوجب علينا ان نكون حذرين في التعامل معها على أساس انها حقيقة مطلقة .

وعلى اية حال فإن ما تجدر الإشارة اليه هو ذلك الاختلاف الجوهري لدى المؤرخين والنسابة الذين تناولوا تاريخ هذه الدولة من جوانب متعددة لعل أهمها : انتسابها لآل بيت رسول صلى الله عليه وسلم من عدمه ، وهو ما يدعونا لاتباع منهج واضح يكون فيه نوع من الحياد في توضيح هذه المسألة . فمنهم من نسبها علي بن ابي طالب رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين ، وزوج السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لذلك عُرفوا بالعلويين نسبة لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وبالفاطميين نسبة

للسيدة فاطمة رضي الله عنها ، ونسبهم البعض الى الباطنية لاعتقادهم بعلم الباطن الذي لا يعرفه ولا يعلم تأويله غيرهم ، ووصفهم البعض بالمجوس واليهود والى ميمون القداح ، بل ورماهم فريق آخر بالكفر والالحاد، ولم تنجح محاولات المهتمين من المؤرخين والباحثين والنسابة تقصي الحقائق في الوصول الى جواب شافي لهذه المسألة [1] وعلى غرار معظم الدول الإسلامية التي سبقت هذه الدولة أو عاصرتها ، وحتى التي تلتها فقد عُرفت بأسماء مؤسسيها كالأمويين والعباسيين والاغالبة والرستميين وغيرهم ، فقد عرفوا بالعبيديين نسبة لعبيد الله المهدي الشيعي مؤسسها المباشر . ولذلك فان البحث في هذه المسألة هو . في حقيقته . ضرب من ضروب الجدل الفكري، بالنظر الى دور الستر الذي مرت به هذه المرحلة من التكوين والتأطير النظري، ووضعتنا أمام دولة وكيان سياسي قائم فعلا . الا أن ما يهمنا من ذلك هو تلك الهالة من القداسة التي أحاط بها هؤلاء الخلفاء / الائمة انفسهم، ومنحتهم الحرية المطلقة ، وسلبت غيرهم كل ذلك . الامر الذي ولّد لدى الكثيرين لاسيما ابنا البيت انفسهم نوع من الامتعاض ، وكذلك للرجال المؤسسين الذين قامت على كواهلهم هذه الدولة ، وافضى الى حالة أو مرحلة من الصراع على السلطة سقطت امامها كل تلك المبادئ والقواعد والقيم التي نادى بها هؤلاء .

السلطة المطلقة للإمام :

تجدر الإشارة . بادئ ذي بدء . الى تلك السلطات (المطلقة) التي منحها عبيد الله المهدي الشيعي لنفسه ، غداة توليه مقاليد الأمور ومبايعته بالخلافة ، فقد قسم اعمال افريقية على رجال كتامة ممن ساندوه في إقامة دولته ، واسبغ عليهم النعم والعطايا والهبات ، ودون الدواوين واستصفى أموال من هرب من الاغالبة ، ولقد سن سياسة الحكم المطلق ، وعمل على تركيز السلطات الدينية والزمنية بيده ، واشتغل بالقضاء بنفسه ، والنظر في المظالم واجزل العطاء والجود بالمال للخاصة والعامة ، حتى لا يرى الناس غيره .

ومما تنبغي الإشارة اليه أيضا هو ذلك الدور الاستثنائي الذي لعبه الدعاة تمهيدا لقيام هذه الدولة ببلاد الغرب الإسلامي وفي مقدمتهم ابي عبد الله الشيعي واخيه ابي العباس ، اللذين كان لهما الدور الأكبر في قيامها وتثبيت أركانها ، فقد حملا أعباء الدعوة ، وكان أبو عبد الله الشيعي الذي تمتع بالمهارة السياسية في ممارسة الحكم والتنظيم كان مؤهلا لتحقيق حلم الشيعة في الخلافة وزعامة العالم الإسلامي والوصول الى مركز الخلافة التي هي من حقهم الشرعي . كما يزعمون ، وذلك من خلال السياسة اللينة التي سار عليها بينهم ، متمثلة في ما كان يحثهم عليه من مكارم الاخلاق ، والمعاملة الحسنة، إضافة الى لبسه الخشن من

الثياب ، واكله الغليظ من الطعام ، وفرض حياة الزهد والتقشف ، بغية استمالة العامة واقناعهم بشتى الطرق حتى يتعلقوا به ويزدادوا محبة له .

ولا شك انه لاقى في سبيل ذلك مشاق كثيرة ومصاعب جمة تذكرها المصادر [2] ، ولما تحقق له ذلك وكثر اتباعه وانصاره اتخذ قاعدة له ببلدة (ايكجان) من اعمال المغرب ، تعرف بدار الهجرة ، وبدأ باعداد جيش لمهاجمة القلاع والحصون الأغلبية ، وتحقيق أهدافه العملية ، معتمدا في كل ذلك على قبيلة كتامة التي كانت من اكثر قبائل بلاد المغرب عددا وأشدها قوة وأعظمها سطوة(3).

اما على المستويات الأخرى فقد عمل على فرض جملة من الإجراءات التي من شأنها فرض الاستقرار وضمان السطوة ، كعمليات العقاب للمخالفين ، وجمع الأموال اللازمة لتحقيق تلك الأهداف ، والسيطرة على المدن والأماكن المناسبة وذات القيمة السياسية والاقتصادية . وهكذا استطاع القضاء على ملك الاغالبة ، ودخل عاصمتهم مدينة رقادة ونزل بقصرها في رجب 296 هـ/ مارس 909م [3]، وعمل على تركيز السلطات الدينية والسياسية خلال فترة وصايته ، ونادى بالأمان ، واستعمل عمالا من أتباعه على البلدان ، وولّى من يثق به القضاء ، وضرب السكة وكتب عليها شارات الملك [4] ، في خطوة تهدف الى تأكيد مظاهر السادة للدولة العبيدية (الناشئة).

وبعد ان تحقق له مراده استخلف على افريقية شقيقه أبا العباس ، وخرج الى سجلماسة لتخليص عبيد الله المهدي من سجن اليسع بن مدرار ، وتم له ذلك في ذي الحجة 296 هـ / أغسطس 908م ، ثم عاد الى رقادة رفقة عبيد الله المهدي الشيعي الذي اخذ الأموال المودعة في ايكجان ، في إشارة واضحة لتوليه مقاليد الأمور وزمامها .[5] ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من في تاريخ افريقية تحت هذه الدولة ، ووصفها البعض بانها " اول ما أحال القلوب الفاسدة " [6]

الصراع على السلطة بين الامام / الخليفة والمؤسسين:

وهكذا استلم عبيد الله المهدي الشيعي مقاليد الأمور ، وباشرها بنفسه . كما اسلفنا . وعمل على استمالة العامة بكثرة العطاء والجود بالمال ، والاشتغال بالقضاء والنظر في المظالم " حتى نسو سيرة ابي عبد الله

النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، ص36 ، ابن عذاري ، ج1 ، ص124 - 125، المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ، اتعاض الحنفاء باخبار الفاطميين ج1 ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ط2 ، 1996 ، ص55 .

الشيعي فيهم "[7] ، وقد أدت هذه السياسة التي استغنى فيها عبيد الله المهدي عند ابي عبد الله الشيعي واخيه ابي العباس أدت الى حدوث أزمة ثقة بين الطرفين ، واخذ أبو العباس ينكر على أخيه تخليه عن الرياسة وتسليمها لعبيد الله المهدي بعد ان افنى عمره في طلبها وقال له : " ملكت أمرا وانطاع جميع الناس ، فجئت بمن غير سياستك ونقص رئاستك ، وقبض عن البسط يدك وأرى الناس باستقامة أحواله أودك ، واسقطك عما كنت فيه من رفيع المكان واضطهدك ، وقد كنت حرا أن يُملِّكك أزمّة أمره ، ويخصك من كل فضل أديته بشطره "[8] ، وقد تعدى الامر الى تدبير المؤامرات للإطاحة بعبيد الله المهدي مشككين في صحة امامته

واختبار عصمته ، بل وطلبوا منه ان يريهم المعجزات لأنه اصبح موضع شك لديهم ، وقد عبر ابو العباس بشكل صريح وعلني عن عمق الفجوة بين الطرفين عندما عاتبه بعض من يثق بهم فقال : " والله لا تركنا بناء بنيناه واتعبنا فيه ابداننا وذهبت في اعمارنا يسكنه غيرنا ونحن من وراء أبوابه حتى نحل في اعاليه أو نلحقه بأسفله " [9] ، وقال آخر " والله لا تركناه . يعني المهدي . حتى يقاسمنا هذه القصور التي نزلها والأجنّة التي حولها بالأشبار ، ويكون الامر أمرنا والحكم حكمنا كما كان ، ولا رضينا أن نأخذ من تحت يده كما يأخذ العبيد ، بل يكون ما أخذناه بأسيافنا عندنا ، وتحت أيدينا كما كان ، ولنا الفضل فيما نعطيه منه "[10]

وقد تجلت بوضوح صورة الصراع على السلطة في التحذيرات التي وجهها أبو عبد الله الشيعي الى مولاه عبيد الله المهدي ناصحا له ومبينا له السياسة التي يجب اتباعها لاسيما مع قبيلة كتامة التي تعتبر من اكبر واشد قبائل بلاد المغرب قوة وعددا ، وكان لها الأثر المباشر في قيام هذه الدولة . كما اسلفنا . وذلك بغية الحفاظ على دعمها ومساندتها واستمالتها في تحقيق مراده ، يقول في ذلك : " يا مولانا ان كتامة قوم قد قومتهم بتقويم ، واجريتهم على ترتيب وتعليم ، وتم لي منهم ما قصدت ، وهذا الذي فعلته انت بهم من اعطائهم الأموال وتوليهم الاعمال وما أمرتهم به من اللباس والحلي فساد لهم للخروج من عادتهم ، فلو تركتهم كما كانوا إلى أن اباشرهم دونك ، آمرهم وانهاهم وأقيم على ما عوتهم .. فتكون وادعا في قصرك ، لا يصل احد منهم ولا من غيرهم اليك ليكون ذلك أهيب لك واشد لأمرك ... فلما سمع ذلك منه المهدي أيقن بما تداخله وعلم من حيث أتى ، فرد عليه في ذلك ردا لطيفا ولم يُره أنه علم بحاله ، ولا أوقفه على اليأس مما منته نفسه "[11].

وعلى كل حال فقد بدأت تظهر في الأفق مؤشرات الصراع على السلطة ويشتد اوارها وتستعر نارها ، حتى ذهبت . في آخر المطاف . بكبار الرجال المؤسسين الى نهايات محتومة ، ربما يرى البعض إنها نسفت كل جهودهم في وضع قواعد هذه الدولة ، واظهرت حرص وتشبث زعمائها بالسلطة والانفراد بها والاستئثار بالحكم الذي هو حقهم الذي استرجعوه . بزعمهم . من مغتصبيه .

وكان العبيديون . في بداية دعوتهم قد استخدموا مشايخ كتامة وقربوهم منهم واستعملوهم ، واستغلوا نفوذهم وسطوتهم ، وقد وردت في العديد من المصادر الشيعية اشادات واضحة ومن الأئمة انفسهم بدور هذه القبيلة . فقد ذكر القاضي النعمان بن محمد : " إن المعز لدين الله لما حضر الى مجلسه جماعة من مشايخ ووجوه قبيلة كتامة قال لهم . وقد كان دائم النصح لهم . : " اني قد انزلت كباركم منازل الاخوة وصغاركم منازل الأولاد ، وانتم في خير زمان فاعرفوا قدر النعم عليكم وقيسوا أنفسكم اليوم بمن مضى منكم ..." على خلاف بعضٍ من اسلافهم من قومهم ممن كان لهم السبق في نصرة الدعوة الشيعية بأسيافهم وايديهم قبل ان يعترضهم الشيطان بفسادِ وهْمٍ ..." [12] . وهو على ما يبدو يقصد تطلعهم للسلطة .

ومن الذين كان لهم تطلع للسلطة وجاهروا بها وخالفوا على عبيد الله المهدي مع ابي عبد الله الشيعي واخيه ابي العباس القاضي محمد بن عمر المروروذي وهو من رجال الدولة وتولى قضاء القيروان وسائر البلاد بسبب انحيازه للداعيين سالفي الذكر.

ومن الذين خالفوا أيضا على عبيد الله المهدي محمد بن ابي أيوب المعروف بابن ابي العاهة الذي اتُهم بمحاولة القيام على عبيد الله المهدي سنة (300هـ / 912م) فقتل هو وجماعة من أهل القيروان .[13]

ولما تولى القائم بأمر الله أبو القاسم بن المهدي سنة 322هـ/ 933م بعد وفاة والده سار على النهج نفسه في الاستئثار بالسلطة و الوقوف في وجه كل التحديات التي من شأنها زعزعة الاستقرار ، الا إنه واجه اكبر تحديا في عهده وهو ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي ، الذي انتهز وفاة عبيد الله المهدي واعلن ثورته محتسبا لله منكرا لأعمال الظلم التي يمارسها الشيعة . حسب زعمه . [14]

وقد ذكر القائم لبعض رجاله من كتامة ان بعض ممن قاموا عليه وناصبوه الحرب ان سبب ذلك يرجع الى انهم كانوا يرون ان يكون لهم كلمتهم في الامر والنهي ... وهو ما يراه الائمة تدخلا في اختصاصاتهم وحقوقهم ولا يحق لغيرهم ويعد تعديا على سلطانهم. [15]

ولعل ما ذكره القاضي النعمان من خوف القائم على المعز من تنكر المنصور له بسبب حضوته لديه ليدل دلالة واضحة على عمق التنافر والتنافس داخل البيت العبيدي . فيقول القائم في معرض حديثه للمعز وهو صغير السن : " ان اخوف ما اتخوفه عليك من ابيك ما علمه من ايثاري اياك وايثارك امري على امره وميلك إليّ دونه ، وما اعلمه من ميله الى أمهات اخوتك ، فأخشى خشية المشفق عليك ان يعدل بهذا الامر عنك الى غيرك منهم ..." ويوصيه بالصبر حتى تأوول إليه لأنه أهلها . أي الامامة .[16]

ولما كان العهد بالإمامة لولي العهد يتم في غاية السرية والكتمان لكونه من القواعد الأساسية التي يقوم عليها هذا المذهب في اطاره النظري فان ما حصل مع القائم للمنصور 14 ربيع الأول 322هـ/4 مارس 934م يكشف ذلك الصراع الخفي والمستعر على السلطة داخل البيت العبيدي نفسه ، ويظهر ذلك بكل وضوح وجلاء في الإعلان عنها من قبل المنصور بعد سبع سنوات [17] ، او بعد اثني عشر عاما على حد قول البعض .[18]

ولما كانت مبادئ الشيعة الإسماعيلية تنص على ان الامامة تكون في الابن الأكبر بعد والده عند تعيين ولي العهد ولا تنتقل من الامام الى أخيه ن وهو ما يؤكد ان هذه المبادئ لم تقم على قواعد شرعية كما يدعون ، وهو ما أدى الى صراع وتنافس في البيت العبيدي نفسه .

وعندما تولى المنصور أبو الطاهر إسماعيل بن القائم 334 . 341 هـ /945 . 952م كانت افريقية في احرج ظروفها بسبب ثورات الخوارج ، ومن جهة أخرى . ما كان يتعرض له قبل ولايته من المحن . ذلك انه ومنذ ان قلده القائم ولاية العهد واستكتمه عليها ودامت لفترة طويلة يقول: " انه يرى الذين يسعون بالفساد في الدولة التي قلدني الله امرها وأنا لا آمر ولا أنهي ، ولا اتعرض لسيئ انكره ولا أُميئ اليه ... وأهل خاصتي يؤذون ويستطال عليهم فلا يجد عندي احد منهم نصرة ولا قياما ... ويُنال مني واسمع وتُهضم أموالي وتؤكل وأنا في ذلك كله بمعزل ، اتجزع غصص الهموم ، واتحمل فادح النوازل صبرا على ما حمّلت [19] "

ومن الخدم المقربين من الائمة الخلفاء ممن تطلع للسلطة ، ورأى نفسه أولى بها من غيره مظفر الخادم وهو احد الموالي الصقالبة الذين خدموا العبيديين واجتهدوا في ذلك مثل جوهر الخادم وميسور وقيصر ، وكان مظفر هذا قد علم المعز الخط ، وكان مقربا منه ، وعاش معه دهرا طويلا ، وهو مما لا

يدعو مجالا للشك في ان قتله كان بسبب طغيان نفوذه وغيره من الخدم الصقالبة على الخليفة نفسه فتخلص منه سنة 349 هـ / 960م ، على خلاف ما ذُكر حول فساد دينه وعقيدته وشتْمه للمعز لدين الله بلُغته .[20] وكذلك الخادم قيصر الذي " لم يكن يحب أن يرى على ظهر الأرض الا واقعا تحت أمره ونهيه ومن تحت يده " [21] ، وهو ما يؤكد ما ذهبنا اليه من إنهم تطلعوا للسلطة ، واخذ التنافس يشتد بينهم لأجل ذلك .

التداعيات السياسية للصراع على السلطة :

وهكذا ولدت الدولة العبيدية وهي تحمل بذور فنائها منذ البداية ، فقد كانت الأهداف السلطوية والتوجهات السياسية . بعيدة المدى . كانت تسيطر على سياسة عبيد الله المهدي الشيعي وتوجه مساراتها ، وتفرض عليه ان يبقى زعيما للحركة الإسماعيلية ذات الاحقية (المتوهمة) في زعامة العالم الإسلامي كله ، وهذا ما جعله وغيره من الخلفاء الذين تعاقبوا على الخلافة من بعده في مواجهة التحديات الجسيمة التي وضعت كل المبادئ والقواعد والاسس وحتى التطلعات السياسية الأساسية على المحك ، وغير قابلة للتنفيذ لأنها مجرد اطار نظري يسعى أولئك الذين تبنوه لتحقيق أهدافهم من خلاله ، بصرف النظر عن الوسائل والسبل الموصلة لذلك والتي تتغير بتغير الظروف والاحوال .

فأبو عبد الله الشيعي واخيه ابي العباس الذين تفانا في خدمة عبيد الله المهدي وكان لهما الدور الأكبر في قيام هذه الدولة انتهى بهم المطاف الى القتل لأنهما نازعا عبيد الله المهدي ملكه وأظهرا المخالفة عليه وشككا في امره ، وقال بعضهم : " ان كنت المهدي فأرنا المعجزات ، فقد شككنا فيك " ، مما دفع الكثيرين خاصة المتعاطفين مع ابي عبد الله الشيعي واخيه والذين امسوا عرضة لسخط الامام وتنكيله في اية لحظة . دفعهم الى اعلان رفضهم والمجاهرة بذلك فوقعوا في العقوبة التي راح ضحيتها قرابة ألف رجل سنة 299 هـ/ 912م [22].

وهكذا فقد أدت هذه الحادثة الى اندلاع الثورات والفتن في انحاء البلاد ، واستغل ذلك كل المتضررين او الرافضين الذين يريدون ان يظلوا على عوائدهم يقبضون ويبسطون ، وعمت الفوضى وتكشفت الأقنعة عن رغبة كل طرف في الوصول للسلطة . فثار أهل القيروان من كتامة واقاموا فتا يدعى كادو بن معارك الماوطنتي اماما عليهم ، وقدموا له فروض الطاعة والتبجيل على النسق الشيعي الى ان تم القضاء عليها القائم .[23]

وثار أهل طرابلس من الهواريين سنة 300 هـ / 913م وطردوا القاضي الشيعي أفلح بن هارون ، وثار أيضا بنواحي طرابلس احمد بن طالوت القرشي وزحف عليها زاعما أنه المهدي [24] ، واندلعت الثورات في كل انحاء البلاد . في صقلية وفي المغربين الأوسط والاقصى ، ونتج عنها ولاءات تحالفات جديدة مع الامويين بالاندلس و امراء الادارسة بالمغرب كان لها دورها في إعادة صياغة الاحداث وتشكيلها .

بيد ان اشد الاخطار والتحديات التي واجهت العبيديين هي ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الذي عُرف بـ(صاحب الحمار)[25] ، وان كانت أسبابها المباشرة والمعلنة هي سوء سياسة العبيديين تجاه اهل البلاد ، وجورهم واشتطاطهم في فرض الضرائب ، وانحرافهم عن مبادئ الدين الإسلامي الحنيف . فإنها كشفت عمق التصدعات التي اصابت البناء العبيدي من الداخل ، وكشفت هشاشة العلاقة بين الخلفاء انفسهم وعلاقتهم مع مخدوميهم الذين وصلوا الى درجة من اليقين ان ادعاءات الأئمة وحقهم في الخلافة ومبادئهم كانت مجرد سراب يحسبه الظمئان ماء .

ومن التداعيات السياسية الخطيرة التي أدت اليها الصراعات على السلطة في هذه الدولة ان اعتمادهم جميعا . أي الخلفاء والامراء وولاة العهد على العناصر الخارجية من العبيد والغلمان الصقالبة والسودان في حفظ اسرار الولاية والامامة ، فكان منهم الوزراء و قادة الجيوش ، وقد اغرتهم هذه الرتب العالية والمناصب التي وصلوا اليها ، والقرب الذي بلغوه من أئمة الى التطلع للرئاسة والتعالي على الناس ، بل وتعداه في أحيان كثيرة الى طغيان نفوذهم على الخلفاء انفسهم ، الامر الذي أدى الى التخلص منهم وعقوبتهم وما ترتب على ذلك من التداعيات ، كما حصل مع القائد مظفر الصقلبي وقيصر الخادم [26] ، ولا شك ان هذه الحوادث وفي مجملها قد أدت . في أحيان كثيرة . الى وقوع اعمال العنف من القتل والحرق والسلب والنهب والانتقام من كل طرف من اطراف الصراع ، واثرت بشكل مباشر على مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

الخاتمة :

نجح العبيديون / الفاطميون في إقامة أول وحدة سياسية اخذت على عاتقها توحيد بلاد المغرب من لدن برقة شرقا وحتى سجلماسة غربا وفق رؤية سياسية ومذهبية محددة الامر الذي احدث تحولا جوهريا في تاريخ هذه البلاد على مختلف المستويات لاسيما السياسية منها ، وقد وقع العبء الأكبر في إقامة هذه

الدولة وهذا الكيان السياسي على عاتق أولئك الدعاة الذين اجتهدوا وتفانوا في سبيل تحقيق ذلك ، وكان لأهل البلاد فضل كبير في ذلك خاصة قبيلة كتامة التي أسهمت في قيام هذه الدولة خاصة في ما يتعلق بالعمليات العسكرية ، وقد ترتب على ذلك وصول زعيمها الروحي عبيد الله المهدي الشيعي الى السلطة بمساعدة هؤلاء ، وتمكن من وضع قواعدها ، ومن ثم سن سياسة الحكم المطلق بتولي مختلف السلطات ، وتقلد كافة المهام بنفسه ، والتصرف فيها بإرادته . ولا شك ان هذه وما ترتب عليها من التحولات السياسية الخطيرة قد أدت الى ردود فعل متباينة وتداعيات خطيرة على المستوى السياسي وغيره ، واوجدت فجوة عميقة بين الأطراف سواء داخل البيت العبيدي نفسه او على مستوى المتنفذين القادة والزعماء والشيوخ ، في علاقتهم البينية ، خاصة مع الخلفاء / الائمة انفسهم ، وكشفت النقاب عن ادعاءات (الامامة والولاية) العارية عن الصحة والبعيدة عن الحقيقة ، والتي لم توضع موضع التنفيذ . بحسب رأي البعض . وهو ما أدى الى موجة من الصراعات الدامية في كثير من الأحيان .

لقد انعكست هذ السياسة على ذلك السلطان الروحي وما اضفاه على نفسه من القداسة والزعامة من خلال الألقاب المختلفة عن الأنماط المعتادة لدى الدول الإسلامية الأخرى كالعباسية مثلا . فتلقبوا بالمهدي بالله والامام واامير المؤمنين والقائم بأمر الله والمعز لدين الله ، وغيرها من الألقاب ذات البعد الديني ، وهي في مجملها تحمل مدلولات محددة .

وكان على هؤلاء عبء ثقيل في مواجهة التحديات والتداعيات المحتومة ، وإيجاد تصورات لحلول لها ، مم اضطرهم الى إقامة المدن جديدة (المحصنة) . على سبيل المثال . كالمهدية التي استحدثها عبيد الله المهدي واتخذها عاصمة لدولته بدل رقادة عاصمة الاغالبة ، ونقل اليها ملكه ، ورتب فيها ارباب المهن حتى تكون تحت سيطرته وسلطانه ، فكانوا يدخلونها . أي العامة . بالنهار للمعيشة والتكسب ويغادرونها بالليل الى اهاليهم بزويلة بغية التفريق بينهم وبين أموالهم ليلا ، وبينهم وبين اهاليهم نهارا وقد قلد الخلفاء اللاحقون سابقيهم في ذلك ، وربما للأسباب ذاتها .

وفي سياق تعزيز السلطات المطلقة ومواجهة التحديات والتداعيات المترتبة على ذلك استحدث الخلفاء / الائمة الدواوين التي من بينها ديوان الكشف والتحري عن المعارضين للدولة من رجالها انفسهم او من الفقهاء والقضاة والخدم وغيرهم ، وهو ما يشبه الأجهزة الاستخباراتية اليوم ، وذلك بغرض الكشف الضالعين في المؤامرات والتجاوزات ومعاقبتهم بحسب استحقاقهم . ولاشك ان استحداث مثل هذه الأجهزة ليدل دلالة

واضحة على ما كان يحاك من المؤامرات وما يحدث من الصراعات على السلطة في اطار هذه الدولة ، الامر الذي يتطلب متابعة دقيقة وسرية .

والحقيقة ان ظاهرة الصراع على السلطة هي ظاهرة عامة تنسحب على معظم الدول الإسلامية شرقا وغربا وبنسب متفاوتة ، غير إنها تبدو واضحة وجلية في هذه الدولة ، التي زعم أئمتها انهم المتفردون بالولاية والعصمة والزعامة والامامة وكافة السلطات الدينية والدنيوية، التي تجعلهم في حلٍ من كل تصرفاتهم ، وتمنحهم الصلاحيات المطلقة في رقاب العباد وأموالهم . وقد أدى ذلك الى توتر العلاقة سواء بين الائمة انفسهم . خاصة في اختيار ولاية العهد وتولي السلطات المطلقة ، او بينهم وبين ابناء المجتمع كافة ، وما ترتب عليها من الثورات والحروب التي اهلكت الحرث والنسل ، وادت الى تفشي المؤامرات والدسائس بين الامراء أنفسهم ، وساد التفكك والانقسام ، وما نتج عن كل ذلك من التداعيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي لا يمكن فصلها عن التداعيات السياسية ، وما اسفرت عنه من التصدع في البت العبيدي وانتقال هذه الدولة الى مصر . وربما أُتيحت الفرصة في ورقة أخرى لتناولها .

---

[1] البغدادي ، المنصور عبد القاهر بن طاهر : الفرق بين الفرق ، تحقيق : محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، 1988 ، ص 249، ابن الاثير ،ابي الحسن علي ، الكامل في التاريخ ، مراجعة : محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1987 ، ج6 ، 446 ، ابن عذاري ابي عبد الله المراكشي، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، ج1 ، تحقيق : كولان ، بروفنسال ، الدار العربية للكتاب ، ط3 ، 1983 ص281 ، وحول اختلاف وجهات النظر حول نسبهم يراجع محمد سهيل طقوش ، الفاطميين في شمال افريقية ومصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، ط2 ، 2007 ، ص53 وما بعدها

[2] النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، ص31 ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج1 ، ص124 .

[3] النعمان بن محمد : افتتاح الدعوة ، ص245 ، الصنهاجي ، ابي عبد الله محمد ، ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق : جلول احمد البدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط2 ، 1948 ، ص22 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص158 ، ادريس عماد الدين ، عيون الاخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب) ، تحقيق : محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، 1985 ، ص138 .

[4] ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص151 ، ادريس عماد الدين ، المصدر السابق ، ص139 .

[5] النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، ص289 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج1 ، ص66 ، ادريس عماد الدين ، المصدر السابق ، ص167 .

[6] الحاجب ، جعفر بن علي ، استتار الامام وسيرة الحاجب جعفر ، نشر : ايفانوف ، مجلة كلية الآداب القاهرة ، مجلد : 4 ، 5 ، ج2 ، ديسمبر 1936م ، ص131 .

[7] النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، ادريس عمد الدين ، المصدر السابق ، ص177 ، 178 .

[8] ادريس عماد الدين ، المصدر السابق ، ص181 .

[9] النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، 317 .

[10] المصدر نفسه ، ص317 .

[11] المصدر نفسه ، ص308 ، فرحات الدشراوي ، الخلافة الفاطمية بالمغرب ، ترجمة : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1994 ، ص188 .

[12] النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، ص88 ، 201 ، 204 .

[13] ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص169 .

[14] ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص216 ، ادريس عماد الدين ، المصدر السابق ، ص264 وما بعدها

[15] النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، ص109

[16] المصدر نفسه ، ص434 .

[17] الجوذري ،أبو علي منصور العزيزي ، سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق : كامل حسن ، محمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ، 1954 ، ص40

[18] ابن عذاري ، ج1 ، ص218 ، االبن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، ص21 .

[19]النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، ص415 .
[20]النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، ص401 ، الجوذري ، سيرة الأستاذ جوذر ، ص57 .
[21]النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، ص403 .
[22]النعمان ن محمد ، افتتاح الدعوة ، ص320 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص166 ، ادريس عماد الدين ، المصدر السابق ، ص183 .
[23]النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ،ص 324 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص166 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج1 ، ص68 .
[24]النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، ص332 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص209 .
[25]ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص216 ، عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تصحيح وتعليق : تركي فرحان المصطفى ، دار احياء التراث ، بيروت ، 1999 ، ج4 ، ص40 ، ابن الاثير ، عزالدين ، الكامل في التاريخ دار الكتاب اللبناني ، ط3 ، 1983 ، ج6 ، ص303 .
[26] النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، ص401 ، وانظر الهامش 4 .

المصادر و المراجع :

1 . البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفِرق ، تحقيق : محمد بن زاهد الكوثري ، مراجعة : عزت العطار الحسيني ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية 1948 م .

2 . ابن اثير ، أبي الحسن ، الكامل في التاريخ ، دار الكتاب اللبناني ، ط3 ، 1983 .

3 . ابن حماد الصنهاجي ، اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق : جلول احمد البدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .

4 . ابن عذاري ، ابي عبد الله المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، ج1 ، تحقيق : كولان ، بروفنسال ، الدار العربية لكتاب ، ط3 ، 1983 .

5 . ادريس عماد الدين ، عيون الاخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب) ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1985 .

6 . الحاجب ، جعفر بن علي ، استتار الامام وسيرة الحاجب جعفر ، نشر ايفانوف ، كلية الآداب القاهرة مجلد : 4 ، 5 ، ج2 ، ديسمبر 1936 .

7 . ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق : تركي فرحان المصطفى ، دار احياء التراث ، بيروت ، 1999م .

8 . المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ، اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج1 ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ط2 ، القاهرة ، 1996 ، ج2،3 ، تحقيق : محمد حلمي محمد احمد .

9 . النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، تحقيق : فرحات الدشراوي ، تونس ، 1975 .

10 . ـــــــــــــ المجالس والمسايرات ، تحقيق : إبراهيم شبوح وآخرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997م .

11 . ـــــــــــــ الهمة وآداب اتباع الائمة ، تحقيق : كامل حسين ، القاهرة ، د . ن .

المراجع :

1 . حسن إبراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1958 .

2 . الدشراوي ، فرحات ، الخلافة الفاطمية بالمغرب ، ترجمة : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1994 .

3 . عبد الرازق ، محمود إسماعيل ، قضايا في التاريخ الإسلامي ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2 ، 1981 .